السفير

عنوان: رسام الفراغ

المصدر: السفير (1101 كلمة)

تاريخ ميلادي: 08/06/2012

الصفحة: 9

كاتب: بيضون عباس

الشرح: كان علينا أن نزور معرض شفيق عبود الاستعادي في بيال لنتخلص من حبس الفنان في لوحة وحيدة ومن وهم انه يمشي خطوة خطوة وعلى نحو مستقيم ليصل إليها، ومتى وصل إليها وجد نفسه فيها واستقر عليها. لوحة شفيق عبود التي طالما وقفنا عندها وطالما ماهيناه معها وحسبنا انها كل فنه وانها خلاصته ويتيمته، هي اللوحة التي تشبه أن تكون رؤية من الجو لمسطح تتفاوت مساحاته، المتراصفة المتداخلة حجما وضوءاً ولونا والتي تشع بذلك اللون الخامر العارم الذي يشرق ويمور باحتفالية وضوء فجري، بينما تبدو نمنماته وكأنها فهرست مدينة أو سهل أو مهرجان. هي اللوحة التي تسفح أحيانا لوناً عارما وتبطنه بتوشيه على أطرافه أو في داخله أو تترك في وسطه إشارات وعلامات. انه الفراغ الحي الذي يتململ ويخلق ويتكشف عن موجودات يكاد ينفرج عنها ويولدها من قلقه وسيولته وانسيابه وارتجاجاته الداخلية. هذه اللوحة التي تخطر لنا كلما فكرنا بشفيق عبود ليست كل شفيق عبود، بل ليست خلاصته ولا فريدته. فالرسام الذي بدأ في الخمسينيات من القرن الماضي بفن لا تخطئ العين انه «لبناني» من تلك الآونة، وحين نقول لبناني نفكر بفناني تلك الحقبة وبفنهم الذي يغلب عليه انه فن أكاديمي يتخذ الطبيعة في الغالب موضوعاً له أو يتوسع في ذلك فيجعل من الريف وأغراضه وشخوصه مصدر الهامه. فن أكاديمي بألوان التراب والصخر والشجر. لكن المعرض الاستعادي يوحي بأن شفيق عبود الخمسينيات لم يكن قانعاً بذلك الفن الأكاديمي ولم تكن لوحته الريفية منتهى طموحه. كان العام 1950 هو العام الذي وصلت إليه الحداثة الفنية مكتملة: التكعيبية والتعبيرية والتجريد بكل اتجاهاته قد اكتملت وهيمنت. الفن الأكاديمي اللبناني تلك الآونة غدا ليس أكثر من تمرين على الرسم، إذ انه لم يخط حتى إلى الانطباعية التي انتظرنا عمر الأنسي ليحملنا إليها. كانت ألوان التراب والشجر لا تزال كامدة لم تنجبل بالضوء إذ لا يزال المحترف وضوءه المفترض هما الأساس، مع ذلك نرى شفيق عبود وهو يجرب. يجرب في أكثر من موضع ويترك لوحته تتفتح وتطل، ليس بحذر ولا احتراس، لكن بمتانة وأحكام وأسلبة. مع ذلك نتذكر أننا لا نزال في العام 1950 وشفيق عبود ابن الرابعة والعشرين عاماً يومذاك لا يزال في أول شبابه وهو في هذه السن يغامر بجرأة وجسارة. يفرّغ بالسكين أشكال أشجاره ويرسم شكلاً شبحياً ليلياً لشخص في طرف اللوحة فننتبه إلى ما في هذه الأشكال المفرغة من تواشج ومن كتابة تشكيلية. يتحول المنظر الشجري تماماً عن منابته الريفية. فاللوحة تغدو هكذا تشبيكا زخرفيا والعروسان في

لوحة أخرى من أعمال العام 1950. يمكننا أن نرى فيهما أيضاً تأليفا زخرفياً. كانت الخمسينيات إذاً حقبة مغامرة لفنان زاوج منذ البدايات بين قدرة تأليفية وجسارة محسوبة.
يمكننا أن نعثر في الستينيات على مرحلة سوداء في فن شفيق عبود كما نتكلم على مرحلة زرقاء ومرحلة وردية في فن بيكاسو. أسود شفيق يخرج من الأسود ويجثم على الأسود ويتحلل ويفرز أسود آخر. ليس أسود سولاج المضيء المشطوب اللماع المبطن بشرائط وهوامش لونية، انه الأسود الدامغ ذو تلافيف وطبقات وتجاويف، أسود سيال رحمي ليلي يحمل فهارس وعلامات. أسود عاصف ماض حاد يتزاوج مع أزرق نيلي وأزرق كحلي في نوع من هدير لوني، من تفجرات كوكبية، من «لخبطة» موزونة، من عنف موزون أيضا. الأسود حتى وإن لم يظهر في لوحة شفيق عبود فهو مكوّن أساسي، قد يظهر تحت لون آخر. ثمة في فن عبود، في أكثر فنه هذا التزاوج بين عالم ليلي وعالم نهاري. ثمة في فن عبود هذا المطرح الذي تلتجئ إليه الأسرار، الفراغ الذي يتشكل منه وفي داخله الأشكال التي تنشق عنه، الصمت المتموج الذي يكاد يتكلم والذي يتبخر بصمت ويشعّ بصمت ويمور بصمت، أحمر شفيق عبود قد يكون هذا العالم الليلي وكذلك أخضره وكذلك بنيّه. انه ينشق عن أشكال خامرة فيه ويفرج عنها، بقدر من الجهد وقدر من المفاجأة، ثم ان هذا العالم الليلي في فن شفيق عبود هو الذي يمور بالعلامات ويحول لوحات شفيق عبود أحياناً إلى فهارس إلى علامات. تلك اللوحات التي تبدو كأنها مرئية من الجو تبدو كأنها حقل علامات وإشارات، فهي رغم إشراقها وتشعشع ألوانها تكاد تكون مقهى ومهرجاناً أو عيداً توارى في هذا العالم الليلي وبقيت فهارسه وعلاماته ظاهرة. هذا الانشقاق من الفراغ، أو من ليل اللوحة قد يكون سلساً وقد يكون عنيفاً، بل هو في الغالب نوع من التبلج، نوع من الظهور المفاجئ والسريع من ليل الصمت وليل الأسرار. هناك أيضا هذا العالم النهاري المشرق الذي يبطّن الليل وينسل منه ويدور فيه. انه هذا التشعشع الذي يدوّم في الأحمر السابغ والأخضر السابغ أو البني السابغ. انه أيضاً ذلك العالم الذي يبدأ بالكلام والحوار ما أن ينهض صباح اللوحة وما أن تبدأ إشراقات الفنان وتجلياته. عالم ليلي مبطن بالنهار أو عالم نهاري سابغ ومخيم كالليل. في لوحات شفيق عبود كثير من الكلام، ان صمته ثرثار وفراغه مليء وليله نهار وفضاءه يخفي غالبا تلك الكثرة والوفرة والسعة التي تمتلئ بها المقاهي (عنوان دائم في أعمال شفيق عبود) والغرف الكبيرة والرحلات والأسفار والمدن. يعنون شفيق عبود لوحات شاهقة «الغرفة الكبيرة» ويعنون لوحات مليئة بالمفردات، مقهى، كما يعنون بالسفر لوحات شاهقة ايضا. لا نقف كثيراً في العادة عند عناوين اللوحات ولا نعول عليها كثيرا أم قليلاً في تناولنا للوحة أو قراءتنا لها. لكن عناوين شفيق عبود تستوقفنا، انها تعني ان اللوحة بالنسبة له فراغ كما هي الغرف في العمارة. هذا الفضاء أو ذلك الفراغ يسرب اليهما الفنان مفرداته ولا يتوقف عند فضاء محسوس. انه يعملق الفضاء او يحجمه بقدر ما يريد بل يبدو أن غرف شفيق عبود هي قرينة مخيلته وهو يرتجلها لوحات شاهقة، احدها كان بلون وحيد هو الأبيض، الأبيض في الأبيض كما هو درس مالفيش. بياض في بياض، إنها السعة المطلقة. قد تكون سعة الخلوة أو سعة الإلفة. أو قد تكون الكابوس او الوحدة، قد تكون كلمة الفراغ المتبئر الماضي الصارم القاطع.
لو نظرنا إلى لوحة 5 حزيران لرأينا هذا السواد المطبق، ليس هذه اللوحة سوى حداد، لكن شفيق عبود البوناري الهوى والمملوء بفرح اللون والرخاء اللوني يقول حزنه وسأمه في لوحة «حسرات حنون» ببني كامد سابغ ممتد على لوحة بالامتار تنشق عن قوس ابيض وموجودات

أخرى. يعرف شفيق عبود كيف يستنطق الفراغ. بل يعرف، قبل كل شيء، كيف يرسمه بل يعرف كيف يحطمه ويستولد منه، كيف يشعشعه، كيف يزاوج بينه وبين الوقت فيبدو ليلياً ونهارياً ويبدو طياراً شفافاً أو سيالاً مشعشعاً أو كامداً سئماً، أو يجعل منه بئراً لا تمتلئ، ولا قاع لها.

لا يمشي شفيق عبود إلى لوحته بخطى منتظمة، بل ليست له لوحة واحدة، كان على طول حياته الفنية مجربا باستمرار بل يمكننا القول ان موسم العنف لم يكن فقط في لوحات الستينيات السوداء، إذ ان ريشته الواثقة كانت باستمرار عصبية الفراغ الذي يتنفس في لوحاته صنع في الغالب بضربات محكمة وحاسمة في الوقت ذاته، وإذا كانت لوحاته قد غدت، مع الوقت، حواراً مع الفراغ فإن هذا الفراغ كان ينشق بعنف خلاّق عن أشيائه وكائناته.

لم يسخر شفيق عبود في اعماله، لكننا أمام تمثال من السيراميك سماه اتفاق الطائف نجد في الواقع لوحة مجسمة له، مربعات متراكبة ملئت بأشكال شتى. لقد صنع برجاً، كأنما صنعه وهو يلعب. كأنما صنعه وهو يسخر إذ لا يمكن ان يصنع فنان كشفيق عبود مجسماً لاتفاق الطائف الا وهو يضحك منه وربما منا أيضا.

حقوق النشر محفوظة © شركة «السفير» ش.م.ل